الفصل الثالث

توحيد الربوبية

obeikandl.com

توحيد الربوبية

ومعنى توحيد الربوبية: هو الاعتقاد الجازم بأن الله جل جلاله رب كل شيء ومالكه وخالقه ومدبر أمره ورازقه وأنه وحده الذي ينفع ويضر ويحيي ويميت وأنه سبحانه وحده المتصرف بهذا الكون وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا مانع لما أعطى ولا معطى لما منع، بيده الخير وإليه ترجع الأمور وهو على كل شيء قدير[1]، وهذا التوحيد لا يكفي العبد في حصول الإسلام، بل لا بد أن يأتِ مع ذلك بلازمة من توحيد الإلهية، لأن الله تعالى حكى عن المشركين أنهم مقرون بهذا التوحيد لله وحده، قال تعالى: ﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ**﴾ [الزمر:٣٨].

وقال تعالى: ﴿**قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۞ سَيَقُولُونَ لله قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۞ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ سَيَقُولُونَ لله قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ۞ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ مَا اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [المؤمنون: ٨٤ - ٩٢].

- وقال تعالى: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ**﴾ [يوسف: ١٠٦].

وغير ذلك من الآيات من القرآن كثير مما يدل على اعتراف الكفار بخالقهم وإقرارهم به[2]، وإنما عبدوا من دون الله ما عبدوا ليجعلوهم وسائط وشفعاء بينهم وبين الله، ومع ذلك يتخلون عنهم إذا نزلت بهم الشدائد ووقت الاضطرار، ومع هذا الإقرار

(١) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (١/ ٣٤٨).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٥٣).

فلم تغن عنهم شيئًا ولم ينتفعوا به إذ لم يصبحوا به مسلمين ولم تعصم أموالهم ولا دماؤهم ولا أعراضهم، لأنهم أنكروا توحيد الألوهية، وأشركوا بربهم، ولم يلتزموا بلازم ما أقروا به إذ إن توحيد الربوبية يلزم منه توحيد الألوهية[1].

وهو إفراد الله عز وجل بجميع أنواع العبادات، إن المؤمن يشعر بطمأنينة كبيرة وهو يتأمل في ملكوت الله تبارك وتعالى فيرى عظمة الله في خلقه وحكمته البالغة في تدبيره ﴿**أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [الملك: ٢٢].

والحديث عن عظمة الله يملأ القلب سكينة والتدبر في ملكوته يملأه إيمانا فحُق للشاعر أن يتساءل بعد جولة تأمل في مخلوقات الله سبحانه فقال:

قل للوليد بكى وأجْهَشَ بالبكاء ... لدى الولادة ما الذي أبكاكا
وإذا ترى الثعبان ينفُثُ سُمّه ... فاسأله من ذا بالسموم حشاكا
واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو ... تحيا وهذا السمُّ يملأُ فاكا
واسأل بطون النحل كيف تقاطرت ... شهْدا وقل للشهد من حلَّاكا
بل سائل اللبن المصفّى كان ... بين دم وفرثٍ ما الذي صفَّاكا
واسأل شعاع الشمس يدنو وهي ... أبعد كل شيء ما الذي أدناكا
يا أيها الإنسان مهلًا ما الذي ... بالله جلّ جلاله أغراكا[2]؟

إن المتأمُّل في خلق الله عز وجل وملكوته يقود إلى رسوخ الإيمان به سبحانه، ولهذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُوْلِي الألْبَابِ ۞ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾ [آل عمران:١٩٠، ١٩١].

فتأمَّل وسبحْ وتعبد لمن خلقك وذرأك وإليه المصير[3].

---

(١) اقتضاء الصراط صـ(٤٦٠).
(٢) مع الله الاسم الأعظم صـ ٧٩.
(٣) المصدر نفسه صـ ٧٩.

إن من أبرز صفات الله عز وجل الدّالة على ربوبيته صفة الخلق وما تميزت به من إتقان وبديع صنع لا يكون إلا من رب العالمين، فالله عز وجل هو الذي خلق المخلوقات ومن عظيم إتقانه أن سن لها قوانين وسننًا ثابتة منها العام ومنها الخاص عليها مدار انضباطها، وهذه السنن لا يمكن إضافتها لغير الله سبحانه وتعالى، لأنه هو المتفرد بالربوبية وحده لا شريك له[1].

فالسنن العامة تخضع لها جميع الكائنات في وجودها المادي وما يمر بها من حوادث مادية، كنمو الإنسان، وحركته ومرضه وما شابه ذلك، وما تقع من حوادث كونية، كنزول المطر وتعاقب الليل والنهار وغيرها من متعلقات الوجود المادي لمخلوقات الله عز وجل. ولقد وجه الأنبياء والرسل أقوامهم إلى المشاهدة والنظر، والتأمل والتفكر في مثل هذه السنن التي تتضمن دلالات كبيرة على عظمة الخالق وحُسن تدبيره وبديع خلقه لأمره وتدبيره عز وجل وفق سننه ونظامه وقوانينه التي وضعها بقدرته وحده لا شريك له، ومن ذلك قول نوح عليه السلام لقومه قال تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۞ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۞ وَاللهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۞ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۞ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۞ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا**﴾[2] [نوح: ١٥ - ٢٠].

وأما السنن الخاصة فهي تتعلق بخضوع البشر لها باعتبارهم أفرادًا وأممًا وجماعات، خضوعًا يتعلق بتصرفاتهم وأفعالهم وسلوكهم في الحياة، وما يكونون عليه من أحوال وما يترتب على ذلك من نتائج كالسعادة والشقاء، والعز والذل، والقوّة والضعف، والنصر والهزيمة، ونحو ذلك من الأمور الاجتماعية في الدنيا وما يترتب عليها من جزاء في الآخرة سواء كان عذابًا أو نعيمًا، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِّ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [الأعراف: ١٢٨]، أي الخاتمة المحمودة أو النهاية في الدنيا والآخرة لمن اتقى[3]، وكذلك ما ورد في القرآن حول

(١) منهج الدعوة إلى العقيدة في ضوء القصص القرآني صـ ٢٩.
(٢) المصدر نفسه صـ ٢٩.
(٣) المصدر نفسه صـ ٣٠.

غزوة أحد مثل قوله تعالى: ﴿**إِن يَنصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ**﴾ [آل عمران: ١٦٠]. ومن سمات هذه السنن بنوعيها الثبات والإطراد والعموم، قال تعالى: ﴿**وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلًا**﴾ [الأحزاب: ٦٢]، أي لن تجد لها تحويلًا وتغييرًا، بل هي ثابتة دائمة[(١)]، فما من نبي إلاَ أرشد قومه إلى هذه السنن بُغية توحيد الخالق، وخاصة النوع الثاني منها التي تتعلق بالأحوال الاجتماعية، ففي الاعتبار والاتعاظ بها تتحقق الاستقامة المطلوبة في سلوك البشر، وتتحقق الضوابط المرجوة في سبيل تحقيق العبودية الخالصة لله عز وجل، لذا كان من أهداف إيراد القصص في القرآن الكريم الاتعاظ بما جاء فيها من ذكر لهذه السنن، كسنة الأخذ بالأسباب، وسنة التدافع، وسنة الله في نصر المؤمنين، وسنة الله في الفتنة والابتلاء وسنة الله في الظلم والطغيان[(٢)] وغيرها.

إن توحيد الربوبية هو أعظم برهان ودليل على توحيد الألوهية وهو بالنسبة له كالمقدمة بالنسبة للنتيجة، فمن اعتقد أن لهذا الكون العظيم الواسع خالقًا ومدبرًا وقاهرًا ومتصرفًا فيه، يفعل ما يشاء وله القدرة الكاملة على تبديله وتغييره وأنه الرازق لجميع المخلوقات بيده النفع والضر، ويمنع ويعطي، ويميت ويحيي، وينجي عند الشدائد، والكربات، ويجيب المضطر عند اضطراره، من اعتقد ذلك صدقًا تولد في قلبه حب ذلك الخالق العظيم، وهذه المحبة لا بد أن تثمر خضوعًا وانكسارًا وتذللًا، وانقيادًا وطاعة وعبودية ورِقًا لمالك هذا الكون، وكثيرًا ما يذكر الله سبحانه في كتابه الناس جميعهم بأنه هو المنعم عليهم والمتفضل عليهم بالخلق والرزق وجميع النعم، فيرشدهم بذلك لعبادته وحده لا شريك له[(٣)]، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ**﴾ [فاطر: ٣].

***

(١) زبدة التفسير، محمد سليمان الأشقر صـ ٥٦٠.
(٢) منهج الدعوة إلى العقيدة صـ ٣٠- ٣٦.
(٣) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار (١/ ٤٣١- ٤٣٥).